صفات عباد الرحمن

٥ ــ الاعتدال في الإنفاق

● الخطبة الأولى:

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون:

لا زلنا نعيش في رحاب القرآن مع عباد الرحمن، الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، والذين وصفهم الله تعالى في سورة الفرقان.

وصف حالهم في أنفسهم، ووصف حالهم مع النّاس، ووصف حالهم معه سبحانه. ثمّ وصف حالهم في أموالهم فقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟ وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾﴾ [الفرقان: ٦٧].

فليس المفترض في عباد الرحمن أنّهم قوم لا مال لهم، لا، ليس الفقر من خصائص هذه العبوديّة للرحمن، فقد يكونون أغنياء.

وقد وصف الله روّاد المساجد. روّاد البيوت التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، فقال: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ .....﴾[1] [النور: ٣٦ ـ ٣٧] فهم ـ بلغة العصر ـ (رجال أعمال) لهم تجارة ولهم بيع، ولكن ذلك لا يشغلهم عن واجبهم نحو ربّهم.

وخاطب الله المؤمنين بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ

---

(١) وتمامهما: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾.

أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ . .﴾[1] [المنافقون: ٩] ومعنى هذا: أنّ لهم أموالاً وأولاداً، وليسوا رهباناً ولا دراويش، ولكنّهم مأمورون ألاّ تلهيهم أموالهم ولا أولادهم عن ذكر الله، ذكره بالقلب، وذكره باللّسان، فعباد الرحمن لا بأس أن يكون لهم أموال، والمال في نظر الإسلام نعمة يجب أن تُشكر[2]، وهو في نظر الإسلام أمانة يجب أن تُرعى، وهو في نظر الإسلام ضرورة ـ من الضروريّات الخمس ـ يجب أن تُحفظ.

والمسلم في ماله مُستخلف، هو في الحقيقة مال الله وهو أمين عليه. . خليفة عليه نائب عن ربه في حسن تنميته وإنفاقه، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[3] [الحديد: ٧] .

وإذا كان المال مال الله، والإنسان مُستخلفاً فيه كأمين الصندوق، فيجب عليه أن يُراعي تعليمات صاحب المال وتوجيهاته: ماذا يريد منه، وماذا يرضاه، وماذا يسخطه وماذا يأمر به، وماذا ينهى عنه.

لا يجوز لموظف في شركة أو مؤسّسة أن يخالف عن أمر صاحب المؤسّسة ويتصرّف كما يشاء، فالمسلم موظف في مال الله، أمين عليه.

ولله تعالى تعليمات في شكل المال:

تعليمات تتعلّق باكتسابه، أن يُكتسب من حلّه ومن وجوهه المشروعة، وتعليمات تتعلّق بتثميره وتنميته، وتعليمات تتعلّق بإنفاقه واستهلاكه وتوزيعه، والآية التي معنا ركّزت على معنى معيّن مهمّ، هو: كيف ينفق المال؟

قد يجمع المال من حلّه، قد يكتسبه الإنسان من وجوهه المشروعة، ولكنّه بعد ذلك يبخل به عن حقّه يشحّ به أن يبذله لما يحب الله تعالى ويرضي، أو يتلفه ويبعثره ذات اليمين وذات الشمال.

---

(١) وتتّمتها: ﴿. . ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون﴾.

(٢) ولهذا بوّب الإمام النووي في (رياض الصالحين) باباً سمّاه: باب فضل الغني الشاكر وهو من أخذ المال من وجهه وصرفه في وجوهه المأمور بها.

(٣) وتتمّتها: ﴿. . فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير﴾.

والأمّة قد تُصاب في أغنيائها من وجهين:

إما أن تُصاب من ناحية ذلك الغنيّ الشحيح الذي لا يعرف لله حقاً، ولا يعرف في ماله للناس حقًّا، يبخل به عن كلّ واجب.

وإمّا أن تُصاب من ناحية ذلك المتلاف المبذّر الذي لا يبالي أين ذهب المال؟ يبذله هنا وهناك، لا يقف عند حدّ، ولا يقف عند شرع.

ولكن المال ينبغي أن ينفق في وجوهه المشروعة بلا إسراف ولا تقتير، هذا هو خلق الإسلام: القصد والاعتدال.

لذلك جاء في آية أخرى من وصايا القرآن.. من وصايا الله لعباده في سورة الإسراء: ﴿وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين [أشباههم في الشّرّ والمعصية والجحود بنعمة الله]، وكان الشيطان لربه كفوراً. وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها [إذا أتاك القريب أو المسكين أو ابن السبيل يرجو منك شيئاً ولا تملكه وتبتغي رحمة من الله ورزقاً يسوقه إليك] فقل لهم قولاً ميسوراً [عدهم وعداً جميلاً إذا وسع الله عليك وأفاء عليك من فضله] ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك [كناية عن البخل بما هو واجب] ولا تبسطها كل البسط [فتتوسّع وتسرف] فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسوراً﴾ [الاسراء: ٢٦ ـ ٢٩] . فإنّك إذا أسرفت قعدت محسوراً، وإذا بخلت وقتّرت قعدت ملوماً، وأنت ملومٌ محسورٌ على كلّ حال إذا لم تتبع أمر الله ونهيه].

هذا هو القصد والاعتدال، هذا هو دستور الإسلام.

كان النبي ﷺ يسأل الله ويقول: «**اللّهمّ وأسألك خشيتك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الإخلاص في الغضب والرضا، وأسألك القصد في الفقر والغنى**»[1].

---

(١) رواه النّسائي والحاكم عن عمّار بن ياسر، وذكره في صحيح الجامع الصغير وزيادته برقم (١٣٠١).

والقصد: الاقتصاد والاعتدال.

روى الإمام البزّار من حديث حذيفة أنّ النَّبيَّ ﷺ قال: **«ما أحسن القصد في الغنى، ما أحسن القصد في الفقر، وأحسن القصد في العبادة»**[1].

حتى العبادة القصد والاعتدال فيها مطلوب.

وروى الإمام أحمد من حديث أبي الدرداء أنّ النّبيّ ﷺ قال: «من فقه الرجل رفقه في معيشته»[2]: هذا دلالة على فقهه وعلى نور بصيرته، إنّه يقتصد، ولا يبذّر ولا يسرف، ولا يبخل ولا يقتّر، فهو وسط من أمة وسط، و«خير الأمور أوساطها»[3].

وروى الإمام أحمد كذلك من حديث ابن مسعود، أنّ النبي ﷺ قال: «ما عال من اقتصد»[4]، أي: ما افتقر من اقتصد، وذلك لأنّ ذلك يقتصد ويعتدل

---

(١) قال الهيثمي: رواه البزار من رواية سعيد بن حكيم عن مسلم بن حبيب، ومسلم هذا لم أجد من ذكره إلاّ ابن حبان في ترجمة سعيد الراوي عنه، وبقيّة رجاله ثقات (مجمع الزوائد: ١٠/ ٢٥٢).

(٢) قال الهيثمي في المجمع: رواه أحمد، وفيه أبو بكر بن أبي مريم وقد اختلط (٤/ ٧٤) وعن جابر مرفوعاً: «الرفق في المعيشة خير من بعض التجارة» رواه الطبراني في الأوسط، وفيه عبد الله بن صالح المصري، قال عبد الملك بن شعيب: ثقة مأمون، وضعفه جماعة (مجمع الزوائد: ١٠/ ٢٥٢).

(٣) لم يذكره الأستاذ القرضاوي على أنّه حديث نبوي، وقد أورده ابن السمعاني في ذيل تاريخ بغداد بسند مجهول عن علي مرفوعاً به، وهو عند ابن جرير في التفسير من قول مطرف بن عبد الله ويزيد بن مرة الجعفي، وكذا أخرجه البيهقي عن مطرف، وللديلمي بلا سند عن ابن عباس مرفوعاً: خير الأعمال أوسطها [المقاصد الحسنة للسخاوي: برقم ٤٥٥] وتشهد له نصوص كثيرة في القرآن والسنة.

(٤) رواه أحمد والطبراني في الكبير والأوسط، قال الهيثمي: وفي أسانيدهم: إبراهيم بن مسلم الهَجَري وهو ضعيف، وعن ابن عباس مرفوعاً: «ما عال مقتصد قط» رواه الطبراني فيهما، ورجاله وثقوا وفي بعضهم خلاف كما قال الهيثمي (مجمع الزوائد: ١٠/ ٢٥٢٢).

في إنفاقه، يدّخر بعض الشيء من شبابه لهرمه، ومن صحّته لسقمه، ومن غناه لفقره، ومن اقتصد شيئاً للمستقبل فقلّما يفتقر.

الإسلام يطلب الإنفاق، ومن صفات المتقين أنهم ينفقون، ولكنّ الله حينما وصف المتقين في مطلع سورة البقرة قال: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة:٣] أي: ينفقون بعض ما رزقهم الله، وليس كلّ ما رزقهم الله.

والله حين أوجب على النّاس الزكاة، أوجبها في بعض المال: ربع العشر، وفي بعض المال: نصف العشر، وفي بعض المال: العشر، ولم يكثّر على الناس، كما قال الله تعالى: ﴿إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾﴾ [محمد:٣٧].

ولذلك لم يسألنا إلاّ العفو: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ﴾. ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩]. أي: ما فضل عن الحاجة.

ومن هنا جاء في الحديث: «لا صدقة إلاّ عن ظهر غني»[1]. لم يطلب الإسلام منك أن تنفق ممّا تحتاج إليه، من فعل هذا إيثاراً فهذه فضيلة وليست فريضة، كالذين مدحهم الله تعالى في كتابه بقوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]، والأبرار الذين أثنى عليهم فقال: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الإنسان: ٨]. يحبون الطعام، ويتوقون إليه، وهم في حاجة إليه، ولكنهم يبذلونه لله: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [الإنسان: ٩ ـ ١٠].

المسلم ينفق ماله بغير إسراف ولا تقتير، لا يبخل على نفسه، فإنها أوّل ما ينبغي النفقة فيه.

---

(١) رواه أحمد في مسنده عن أبي هريرة، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح. انظر: الحديث (٧١٥٥)، وذكره البخاري معلقاً في كتاب الوصايا من صحيحه.

بعض النّاس يحوز المال فيقتّر على نفسه وأهله، المال في يده وهو محروم منه! وهذا هو الذي قيل فيه: بشّر مال البخيل بحادث أو وارث: إمّا حادثة تأكل أخضره ويابسه، وإمّا وارث يتمتع به من بعده، وربّما يلعنه ويذمّه، فما انتفع منه بشيء!

ككلب الصيد يمسك وهو طاو فريسته ليأكلها سواه!

جاء رجل إلى النبي ﷺ فلم تعجبه هيئته، فسأله: «ألك مال»؟ قال: نعم، قال: «أيّ المال عندك»؟ قال: من كلّ المال آتاني الله [أي عنده الإبل والبقر والغنم والزروع والثمار]، قال: «فإنّ الله يحبّ أن يرى أثر نعمته عليك»(١).

وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾﴾ [الضحى: ١١] : والحديث ليس باللّسان فقط، ولكن بالحال أيضاً.

لا داعي أن تجوّع نفسك، وأن تقتّر على نفسك وأهلك والمال في يدك، أنفق باعتدال على نفسك وأهلك، وفي الحديث: «أفضل دينار ينفقه الرجل: دينار ينفقه على عياله، ودينار ينفقه على فرسه في سبيل الله، ودينار ينفقه على أصحابه في سبيل الله»(٢).

وقال النبي ﷺ لسعد بن أبي وقاصّ: «**وإنّك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلاّ أُجِرتَ عليها، حتى ما تجعل في فِيّ امرأتك**»(٣).

---

(١) رواه الترمذي والحاكم عن عبد الله بن عمرو، وحسّنه في صحيح الجامع الصغير (١٨٨٧)، ورواه البيهقي في (الشعب) جزءاً من حديث عن أبي سعيد، وصحّحه في المصدر السابق (١٧٤٢).

(٢) رواه مسلم، والترمذي، عن ثوبان رضي الله عنه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/ ٥٦٠ برقم ١١٣٣).

(٣) رواه البخاري، ومسلم من حديث طويل (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/ ٥٦٠ برقم ١١٣٤ وقد أورده بطوله النووي في باب الإخلاص وإحضار النية من كتاب (رياض الصالحين).

فالنفقة على النفس وعلى البيت أوّل ما ينبغي أن يفعله الإنسان، ثمّ بعد ذلك ينفق على من حوله من الأقارب والجيران، فهؤلاء لهم حقوق، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول: «ما آمن بي من بات شبعاناً وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم»[1].

ليس من الإسلام في شيء أن تأكل ملء بطنك، وتضحك ملء سنّك، وبجوارك إنسان يئنّ من الجوع، ولا يجد من يقدّم له ما يقيم أوده، وما يطفىء حرقه، ليس هذا من الإسلام ولا من الإنسانيّة في شيء، ولذلك برىء منه النَّبِيّ ﷺ.

إذا كان لك قريب فينبغي أن يكون لقريبك هذا عند عسره وفقره حظّ من مالك: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الإسراء: ٢٦].

والأقربون أولى بالمعروف، كما قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [البقرة: ٢١٥] فبدأ بالوالدين والأقربين.

والنبي عليه الصلاة والسلام يقول: «**الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم ثنتان: صدقة وصلة**»[2] أي فيها أجران: أجر الصدقة، وأجر صلة الرحم.

وأفضل ما تكون الصدقة على القريب إذا كان بينك وبينه شيء من الخصومة والجفوة، كما في الحديث الصحيح: «أفضل الصدقة: الصدقة على ذي

---

(١) رواه الطبراني والبزار وإسناده حسن، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/ ٦٩١.

(٢) من حديث سلمان بن عامر رضي الله عنه، رواه النّسائي، والترمذي وحسّنه، وابن خزيمة وابن حبّان في صحيحيهما، والحاكم وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ١/ ٢٨٨، الحديث ٤٦١).

الرحم الكاشح»[1]. أي: الذي يضمر في كشحه لك خصومة أو عداوة، لأنّك في هذه الحالة لا تعطيه مجاملة ولا مودّة بمودّة ولا إحساناً بإحسان، بل تعطيه لله عزّ وجلّ، ولحقّ القرابة بينك وبينه.

مع هذا كلّه هناك حقّ الزكاة، الحق الماليّ الثابت الدوريّ المحدّد في نظر الإسلام.

الزكاة ثالثة دعائم الإسلام بعد التوحيد والشهادة للنبي عليه الصلاة والسلام بالرسالة وإقامة الصلاة، فلا بدّ أن تبذل من مالك، وقد جاء في بعض الأحاديث:

«برىء من الشحّ من أدّى الزكاة، وقرى الضيف، وأعطى في النائبة»[2].

يبرأ الإنسان من الشحّ: إذا أدّى الزكاة الواجبة عليه، وقرى الضيف الذي يحلّ به، وأعطى في النوائب التي تنزل بالمسلمين: زلازل، جهاد، مجاعة... إلخ.

بهذا يبرأ الإنسان من الشحّ ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦].

وهناك أناس يعطون فوق هذا كلّه، كان الإمام اللّيث بن سعد ـ وكان يُقارن بالإمام مالك ـ من أغنياء المسلمين، وقالوا: إنّ دخله السنوي كان ثمانين ألف دينار وما وجبت عليه زكاة قطّ، لأنه ما كان ينتظر بالمال حتى يحول عليه الحول، بل يتصدق بكلّ ما يجمعه، فالمال من الله وإلى عباد الله، جاءت امرأة

---

(١) رواه الطبراني في الكبير، ورجاله رجال الصحيح، وابن خزيمة في صحيحه، والحاكم وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ١/٢٨٩، الحديث ٤٦٢).

(٢) ذكره ابن كثير في تفسير سورة الحشر نقلاً عن ابن جرير الذي رواه بسنده عن أنس. رضي الله عنه (٤/٣٣٩) طبعة الحلبي.

تسأله شيئاً من عسل، فأمر لها بزقّ (جرّة كبيرة) فقال له بعض جلسائه: تسألك أكلة عسل فتعطيها زقًّا! فقال إنها تسأل على قدر حاجتها، ونحن نعطيها على قدر نعمة الله علينا!

وكذلك كان عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، كان من كبار الأثرياء، ومن كبار الأسخياء أيضاً، وكان من خصاله وفضائله المشهورة أنه لا يردّ سائلاً يؤمّه في حاجة قط، ولّما لامه بعض هؤلاء الذين يبخلون الناس، قال: إن الله عودّني عادة وعوّدت عباده عادة، عوّدني أن يعطيني وعوّدت عباده أن أعطيهم، وأخشى إذا قطعت عادتي عنهم، أن يقطع عادته عنّي!

هكذا كان القوم، لم يكونوا يقتّرون بل كانوا ينفقون، والإنفاق في الخير لا سرف فيه، كان بعضهم قد جاء بصرّة من فضّة في سبيل الله فقيل له: يا فلان لا خير في إسراف، قال: ولا إسراف في الخير، والصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ كانوا يتسابقون في البذل عند الحاجة إلى تمويل العسكر المسلم في الغزوات، كان هذا يدفع الآلاف، وهذا يدفع عشرات الآلاف، وهذا يدفع مئات الآلاف، وهذا يجهّز جيشاً بأسره[1].

وفي إحدى الغزوات: جاء عمر ـ رضي الله عنه ـ بشطر ماله إلى النبي ﷺ، وكان يظنّ أنّ أحداً لم يعط مثل هذا من قبل، فإذا بأبي بكر ـ رضي الله عنه ـ يأتي بكلّ ما عنده، فسأله النبي ﷺ: «يا أبا بكر: ما أبقيت لأهلك؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله»[2]، لم يدع لهم شيئاً.

---

(١) راجع في هذا (حياة الصحابة) للكاندهلوي، باب (إنفاق الصحابة في سبيل الله).

(٢) أخرجه أبو داود، والترمذي وقال: حسن صحيح، والدارمي، والحاكم، والبيهقي، وأبو نعيم في الحلية (حياة الصحابة: ٢/ ١٥٠) ولفظ الترمذي: «أمرنا رسول الله ﷺ أن نتصدّق فوافق ذلك مالاً فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يوماً، قال: فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله ﷺ: ما أبقيت لأهلك؟ قلت: مثله، وأتى أبو بكر بكل ما عنده، فقال: يا أبا بكر: ما أبقيت لأهلك؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله. قلت: والله لا أسبقه إلى شيء أبداً.

وهذا يجوز إذا كان الإنسان قويّ الثقة بالله، قويّ التوكل على الله، ويعلم من أهله وأسرته مقدار توكّلهم وصبرهم أيضاً.

أمّا إن كانوا لا يصبرون وليس عندهم مثل هذا اليقين والإيمان، فلا ينبغي أن يبذل ماله كلّه، لأنّهم لا يصبرون صبره.

فأبو بكر علم أنّه وأهله قادرون على الصبر فلذلك أعطى ماله كله لله.

إنّ هؤلاء كانوا على ثقة أنّ الله تبارك وتعالى لا يضيع عليهم شيئاً «ما نقص مال من صدقة»[1]، أو «ما نقصت صدقة من مال»[2]، على هذا حلف رسول الله ﷺ، فالمال لا تنقصه الصدقة بل تزيده، يقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩]، ﴿الشيطان يعدكم الفقر (إذا أنفقتم) ويأمركم بالفحشاء، (الخصلة القبيحة البالغة القبح وهي البخل)، والله يعدكم مغفرة منه (أي في الآخرة) وفضلاً (أي سعة في الدنيا)، والله واسع عليم﴾ [البقرة: ٢٦٨]، وأكثر الناس يصدّقون وعد الشيطان، ولا يصدّقون وعد الرحمن! أو يصدّقونه ولكن لا يضعونه موضع التنفيذ، بل يغفلون عنه.

عباد الرحمن «إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا» لم يقتّروا على أنفسهم، لم يقتّروا على أهليهم، لم يقتّروا على أقاربهم، لم يقتّروا على جيرانهم، لم يقتّروا في النوائب والنوازل التي تنزل بالمسلمين، وقبل ذلك كلّه: لم يقتّروا ولم يبخلوا بحق الله الأوّل عليهم وهو (أداء الزكاة).

---

(١) كما في حديث أبي كبشة الأنماري رضي الله عنه مرفوعاً: «ثلاث أقسم عليهنّ..: ما نقص مال عبد من صدقة...» رواه أحمد في مسنده (٤/ ٢٣١) والترمذي وقال: حسن صحيح (٢٣٢٦).

(٢) رواه مسلم، والترمذي، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وتتمته: «وما زاد الله عبداً بعفو إلاّ عزًا، وما تواضع أحد لله إلاّ رفعه الله عزّ وجلّ» (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: الحديثان ١٤٦٢، ١٧٥١).

وهم ـ أيضاً ـ لا يسرفون إذا أنفقوا، والإسراف: إمّا النفقة في معصية الله عز وجلّ، كما جاء عن السلف: لو أنّ امرءاً أنفق ماله كلّه في الحق والخير لم يكن مبذراً، ولو أنفق مدًّا واحداً في باطل وشرّ كان مبذّراً.

من أنفق ماله في خمر.. في مخدّرات.. أو ترف محرّم كأواني الذهب والفضّة، وتماثيلهما، في أي شيء من الحرام، فهذا إسراف وتبذير ولا شك.

وإمّا إنفاق المال وتبديده في المباحات، فالمسلم إذا أنفق لا يتوسّع أكثر من طاقته، يمدّ رجليه على قدر لحافه، يوازن بين دخله وخرجه، بين إيراده ومصروفه، فلا يتوسّع ثمّ يورّط نفسه في الدَّين، والدَّين همّ بالليل ومذلّة بالنّهار، ولعلّ الأجل يوافيه قبل أن يوفيّ ما عليه، ويكون مرهوناً بدينه، فلماذا يورّط نفسه في هذا؟ وقد كان النبي عليه الصلاة والسلام يستعيذ بالله تعالى من ضلع الدَّين وغلبة الرجال[1].

الناس يستهينون بالديون، ويتوسّعون في الشراء بالتقسيط والآجال، ويضيّقون على أنفسهم، وأولى بالمسلم أن يوازن بين أحواله، إلاّ إذا اقتضته حاجة إلى أن يستدين، فليستدن ولينظّم أموره حتى يقضي دَيْنه، ولينو وليصمّم على أداء الدَّين، والله تعالى إذا عرف صدق نيّته أمدّه بمعونته ومساعدته، ففي حديث البخاري: «من أخذ أموال النّاس يريد أداءها أدّى الله عنه، ومن أخذ أموال الناس يريد إتلافها أتلفه الله»[2] أي: أهلكه وأهلك ماله.

هذا هو شأن الإنسان المسلم: إذا أنفق لا يسرف.. لا يضيّع المال، فقد

---

(١) في الدعاء المأثور عنه ﷺ: «اللّهمّ إنّي أعوذ بك من الهمّ والحزن، والعجز والكسل، والبخل والجبن، وضِلَع الدين وغلبة الرجال» رواه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي، كلّهم عن أنس بن مالك بألفاظ متقاربة، واللفظ للبخاري (فيض القدير للمناوي: ٢/ ١٥١ ـ ١٥٢ برم ١٥١٣).

(٢) رواه البخاري، وابن ماجه، وغيرهما، عن أبي هريرة رضي الله عنه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/ ٥٢١، الحديث ١٠١٨).

نهى النبي ﷺ عن إضاعة المال[1].. عن إضاعة هذه النعمة.. عن تضييع هذه الأمانة.

أيّ درهم أو دينار في يدك ثق أنّه ليس لك، إنّه للأمّة كلّها، إذا ضيّعته في غير حق فقد ضيعّته على نفسك وضيعّته على الجماعة.. على الأمّة الإسلاميّة.

ولهذا فالذي ينفق ماله في شرب الدخان ـ مثلاً ـ يضيّع هذا المال على نفسه وعلى الأمّة، يضرّ نفسه بحرّ ماله، يشتري ضرره بفلوسه، ولمن يدفع هذه الفلوس؟ لشركات التدخين العالميّة الاستعماريّة!

المال نعمة يجب على المسلم أن يحافظ عليها.

كم من مشروعات إسلاميّة في بلاد إسلامية تحتاج إلى تمويل ولا تجد من يموّلها؟ كم من مدارس نحتاج إلى أن تقوم؟ كم من مساجد نحتاج إلى أن تُشيّد؟ كم من مكاتب لتحفيظ القرآن، وكم من مراكز إسلاميّة نحتاج إليها؟ كم من مرضى يفتقرون إلى الدواء؟ كم من مشردّين يفتقرون إلى البيوت؟ كم من يتامى يفتقرون إلى من يكفلهم؟ كم من جياع يريدون أن يأكلوا وليس هناك من يعطيهم؟!

ألقلّة المال لدى المسلمين؟ لا والله، المال كثير، ولكنّه يُبعثر ـ للأسف ـ في غير وجهه.

كم من أناس ينفقون الألوف، وعشرات الألوف، ومئات الألوف في غير ما يرضي الله تبارك وتعالى، فإذا طلبت منهم شيئاً لله كفّوا أيديهم وشحّت أنفسهم؟!

---

(١) في حديث المغيرة بن شعبة المتفق عليه مرفوعاً: «إنّ الله تعالى حرّم عليكم: عقوق الأمّهات، ووأد البنات، ومنعا وهات، وكره لكم: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال» صحيح الجامع الصغير وزيادته (١٧٤٩).

ولا عجب أن وصف لنا القرآن قوماً من النّاس حينما قال: ﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيْطَٰنُ لَهُۥ قَرِينًا فَسَآءَ قَرِينًا ﴿٣٨﴾﴾ [النساء: ٣٦ ـ ٣٨] .

انظروا: وصفهم بالبخل.. البخل في أنفسهم، وتحريض الآخرين على البخل، ووصفهم ـ في الوقت نفسه ـ بأنّهم ينفقون أموالهم رئاء النّاس، أي في المظاهر الزائفة.. في الأحفال التي يتحدث الناس عنها.. في الولائم التي يتسامع النّاس بها، حيث تُذبح الذبائح الكثيرة، ولا يُؤكل منها إلاّ العشر أو أقلّ من العشر، ثمّ يُرمى الباقي هنا وهناك، وهناك أناس يحتاجون إلى اللّقمة فلا يجدونها!

أموال تُضيّع هنا وهناك رئاء النّاس، الرياء الاجتماعي والرياء الديني: كم أفسدا النيّات وأفسدا القلوب، وأضاعا الأموال على هذه الأمّة.

الإسراف ـ للأسف ـ أصبح سمةً من سماتنا، نبخل عن الواجبات ونسرف في المحظورات أو فيما لا نفع فيه.

نحن في حاجة إلى أن نضبط أنفسنا.. أن نضبط استهلاكنا، يتحدثون الآن عن ترشيد الإنفاق، ونحن في حاجة إلى أن نرشّد الإنفاق والاستهلاك في كلّ شيء.

نحن نسرف في استهلاك الماء، ونسرف في استهلاك الكهرباء، ونسرف في استهلاك الطاقة، ونسرف في استهلاك السيّارات، ونسرف في استهلاك الأجهزة والأدوات، كل شيء لا قيمة له عندنا، كأنّ هذه الأموال أموالنا نحن ليست أموال الله في أيدينا.

نحن في حاجة إلى أن نحافظ على هذا كلّه[1].

وبعض الناس يحافظ على ماله هو، الذي يملكه، ولكنه إذا كان موظّفاً في حكومة، أو موظّفاً في مؤسّسة، أو موظّفاً في شركة، أسرف في المال الذي تحت يديه، وأنفق وبدّد، وتوسّع وبعثر.

لا، إنّ من صفات عباد الرحمن أنهمّ: ﴿إِذَآ أَنفَقُواْ﴾ من أموالهم أو من أموال غيرهم التي ائتمنوا عليها ﴿لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ﴾ إنهمّ معتدلون في كلّ شيء، والاعتدال خلق من أخلاق الإسلام.

مر النبي ﷺ على سعد وهو يتوضّأ، فقال له: «لا تسرف في الماء» فقال: وهل في الماء من إسراف؟ قال: «نعم وإن كنت على نهر جار»[2]: حتى لو توضّأت من نهر تجري مياهه، ولا يضرّ النّهر إن أخذت منه أو زدت، ولكن ليكن هذا خلقاً لك.. سمةً من سمات شخصيّتك.

هذه أخلاق عباد الرحمن، نسأل الله تبارك وتعالى أن يجعلنا منهم، إنه سميع قريب، ادعوا الله تعالى يستجب لكم.

● الخطبة الثانية:

أمّا بعد فيا أيها الإخوة:

ورد أنّ في يوم الجمعة ساعة إجابة، لا يصادفها عبد مسلم يدعو الله

---

(١) انظر: فصل (القيم والأخلاق في مجال الاستهلاك) من كتاب الأستاذ القرضاوي (دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي) ص١٩٥ ـ ٢٥٧ نشرته مكتبة وهبة بالقاهرة.

(٢) رواه ابن ماجه، وأحمد عن عبد الله بن عمرو، وقال البوصيري في الزوائد: إسناده ضعيف لضعف حي بن عبد الله المعافري وابن لهيعة (زاد المعاد لابن القيم بتحقيق شعيب وعبد القادر الأرناؤوط: ١/ ١٩٢). وهو الحديث (٤٢٥) في ابن ماجه، ولكنه يقويه حديث ابن عمر قبله (٤٢٤): «لا تسرف، لا تسرف».

بخير إلاّ استجاب له، ولعلّها تكون هذه الساعة.

اللّهمّ إنّا نسألك العفو والعافية في ديننا ودنيانا، اللّهمّ أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادنا، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير، واجعل الموت راحة لنا من كلّ شرّ.

اللّهمّ إنا نسألك خشيتك في الغيب والشهادة، ونسألك كلمة الحق في الغضب والرضا، ونسألك القصد في الفقر والغنى، ونسألك الإخلاص في السّرّ والعلانية.

اللّهمّ اجعل يومنا خيراً من أمسنا، واجعل غدنا خيراً من يومنا، وأحسن عاقبتنا في الأمور كلّها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

اللّهمّ اغننا بحلالك عن حرامك، وبطاعتك عن معصيتك، وبفضلك عمنّ سواك.

اللّهم انصر أمّة الإسلام على من عاداها، اللّهمّ عليك بالكائدين لها.

اللّهم عليك بأعدائك أعداء الإسلام، اللّهم ردّ عنا كيدهم، وفلّ حدّهم، اللّهم إنا نجعلك في نحورهم، ونعوذ بك من شرورهم.

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧].

اللّهم آمين.

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ﴾

[العنكبوت: ٤٥].